إيماءة

الحياةُ الأَدبيَّةُ في فِلسطينَ الآنيَّة

محمَّد حلمي الرِّيشة

سـأَقذفُ بالمـاءِ الَّـذي أَبقيتُ، بإرادتـي، في فَمي، بعـدَ أَن صبرتُ صبرًا «جميلاً»، وسأُخرجُ لسَاني «حصَاني» مِن عزلتِنا الإراديَّةِ معًا؛ فقدْ طالَ أَمدُ «الشَّيطانِ الأَخرس» بيَّ، ولاَ أَلومُ إلاَّ نَفْسي، ومَعي غَدي، ويَومي، وأَمسِي!

لَـم يَعدْ مقبـولاً، ولاَ معقولاً، أَن تظلَّ «حياتُنا الأَدبيَّةُ الفلسـطينيَّةُ» عمياءَ، وصمَّاءَ، وبكماءَ، بإرادتِنا، أَكثرَ ممَّا هيَ عليهِ الآنَ! أَليسَ كذلكَ؟ ومَن الَّذي، مِن الأُدباءِ ومَسؤولي «الأَبراجِ الأَدبيَّة»، عَلى اختلافِ أَشكالِها وبُنيتِها، سـوفَ يظلُّ راضيًا، بلْ وفاعلاً، بحَذقٍ، بِهذا «الموات/ التَّماوتِ الأَدبيِّ»، والَّذي كادَ أَن يكونَ طبعًا، وسلوكًا، ومَنهجًا؟!

كيفَ كانتْ «فلسطينُ الأَدبيَّةُ»، في عزِّ أَزماتِها المختلفةِ القاسيةِ والمُستنزِفةِ لكلِّ شـيءٍ، قادرةً علَى طباعةِ الكتبِ، وإصدارِ الملاحقِ، وتَبنِّي المواهبِ، وعقدِ الأُمسياتِ والنَّدواتِ والحواراتِ، والكتاباتِ النَّقديَّة، والاحتفاءِ بظواهرِ الأَدبِ الإبداعيِّ كلِّهِ؟! كانَ هذا أَواخرَ السَّبعينيَّاتِ مِن القرنِ الماضيِّ، واستمرَّ ردحًا لاَ بأْسَ بِهِ مِن الزَّمنِ، إلى أَن وصَلْنا إلى حالةِ التَّشتُّتِ الأَدبيِّ، بقَلقِها، ويأْسِها، ووأْدِها، وتماوتِها، وشبهِ موتِها، بِفعلِ فاعلينَ، وهُمْ كثرٌ!

أَمِنَ المعقولِ، فِي «حياتِنا الأَدبيَّةِ الفلسـطينيَّة» أَن لاَ يجدُ أَديبٌ مبدعٌ جهةً تصـدرُ لهُ كتابًـا؟ وإن وجِدتْ، وهذهِ نادرةٌ جدًّا، فإن لَها مَا لَها مِن المعاييرِ المشبوهةِ، والمضلِّلةِ، مَا يشوِّهُ روحَ الأَدبِ والأَديبِ معًا!

أَمِنَ المعقولِ أَن لاَ تكونَ فِي «حياتِنا الأَدبيَّةِ الفلسطينيَّةِ» الآنيَّةُ مجلَّةٌ شهريَّةٌ علَى الأَقلِّ (والضَّرورةُ أُسـبوعيَّةٌ)، كمَا كانَ لَدينا، وقدْ كانَ لَدينا أَكثرَ مِن مجلَّةٍ إبداعيَّةٍ متميِّزةٍ؟! وكذلكَ صحيفةٌ أَدبيَّةٌ أُسبوعيَّةٌ؟!

أَمِنَ المعقولِ أَن لاَ تكونَ فِي صُحفِنا اليوميَّةِ صفحةٌ أَدبيَّةٌ وأَكثرُ يوميَّةٌ، علَى غرارِ الصَّفحاتِ الرِّياضيَّةِ، وغيرِها مِن الصَّفحاتِ الَّتي تملأُ الصُّحفَ ولاَ يقرؤُها إلاَّ أَقلَّ القليلِ؟!

إنَّني، وغَيري مِن الغَيورينَ، حينَ أُلقي نظرةً خصوصيَّةً فاحصةً، أَو عموميَّةً عابـرةً، علَى حياتِنا الأَدبيَّةِ، أَرى حالاتٍ أَدبيَّةً مشـتَّتةً، تهيمُ علَى وجوهِها الإبداعيَّةِ، والَّتي كثيرًا مَا تتوقَّفُ، فَتنكسرُ وهيَ أَعواذُ النِّدِّ الَّتي تعطِّرُ الحياةَ مَا استطاعتْ إلى هذَا سبيلاً! فلماذَا وصلتِ تلكَ الحالاتُ الجميلةُ إلى الحالةِ المقيتةِ/ المشـبوهةِ/ المشوَّهةِ؟ وإلى مَن تُحالُ الإحالاتُ الأَعلى إلى مَن هُم لاَ يزالونَ في الأَدنى؟!

إنَّ المبدعَ الفلسطينيَّ لاَ يزالُ أَسيرَ حاجاتِهِ الضَّرورية، ولاَ يزالُ غيرَ قادرٍ علَـى امتلاكِ حقَّـهِ مِن الحرِّيَّةِ الإبداعيَّةِ، ولاَ يزالُ حيِّزُ الطَّباعةِ ضيِّقٌ جدًّا وهوَ في الأَغلبِ علَى حسابِهِ الشَّخصيِّ، ولاَ يزالُ غيرَ قادرٍ على العيشِ مِن إبداعِهِ للتَّفرُّغِ لهُ، ولاَ يزالُ يُعاني مِنَ المؤسَّساتِ الرَّسميةِ وغيرِ الرَّسميَّةِ إنْ لَمْ يَقبلْ بِشروطِها المُهينةِ، والَّتي يجلِسُ علَى (عروشِها) ذوو (الفكهِ) الَّذينَ لاَ يعرفونَ مِن واجباتِهمْ/ أَدائهمْ سِوى الرَّاتبِ أَوَّلَ كلِّ شهرٍ، والسَّعيِ وراءَ الامتيازاتِ الشَّخصيَّةِ، ولاَ يزالُ المبدعُ يُذهِبُ ببصرِهِ وصحَّتِهِ وحصَّتِهِ مِنَ الحياةِ (دونَ انتظارِ كلمةِ شـكرٍ أَو تقديرٍ) من أَجلِ استمرارِ حركيَّةِ الإبداعِ الفلسطينيِّ مُساهمًا فِيها، ولاَ يزالُ ...، ولاَ يزالُ ...، جاءَني وجعُ رأْسٍ الآنَ!

«لَـم يَعـدْ أَحدٌ يُنـادي علَى أَحدٍ». هكذَا قالَ لِي، ذاتَ يـومٍ، الصَّديقُ المفكِّرُ والأَديـبُ د. أَفنان القاسـم، خلالَ حوارٍ أَدبيٍّ وثقافـيٍّ، بعدَ أَن انهزمَ الجمعُ وولَّوا الأَدبارَ. ولكنْ؛ إلى متَى ستظلُّ «حياتُنا الأَدبيَّةُ الفلسطينيَّةُ» مثلَ كثبانِ الصَّحـراءِ فـي يومٍ عاصفٍ؛ مَا أَن تقفُ على واحـدةٍ مِنها إلاَّ وتجدُ قدميكَ معلَّقـةً فـي الدَّوارِ، فيكونُ لزامًا عليكَ أَن تتحـدَّى الجاذبيَّةَ، فطُوبى لمَن لَمْ يزلْ ثابتًا/ نافخًا تحتَ جناحيهِ هواءَ إبداعِهِ!

* * *

أَرى مَـا لاَ أُريد

أُقولُكِ الآنَ مُستمرًّا في إنضاجِ حرائقِي..
أَيَّتها المخبَّأَةُ في نُواةِ العشقِ الَّتي لاَ تُرى حتَّى بالعينِ غيرِ المجرَّدة..
أَنصفِيني في ميزانِ عدالةِ القلبِ- قلبكِ..
لاَ تَدعينـي في إحدى كفَّتيهِ دونكِ فـي الأُخرى، أَنتظرُ طويلاً متصدِّعًا منْ رياحٍ جديدةٍ- قديمةٍ تُورجِحُني إلى مَا لاَ أَشتهِي..
أَرجوكِ أَنْ تَنشُريني فيكِ مثلَ وردةٍ مغايرةٍ؛ إنِّي أَرى مَا لاَ أُريد!

جحيمُنا ونعيمُهم

أَريحيني قليلاً، ولَو قليلاً، مِنهم..
أُريـدُ أَنْ أَتفرَّغَ لإتقـانِ مزجِ أَلواني الَّتي تُظهِركِ أَكثـرَ بهاءً وأُلفةً، خارجَ نطاقِ دائرتِهم الوحشيَّة..
ليسَ مِنَ العبثِ مجابهتُهم، لكنْ مِنَ الشُّـذوذِ السَّـلبيِّ تفسـيرَهم خارجَ نطاقِ تلكَ الدَّائرة..
ليذهَبوا عنْ جحيمِنا الَّذي يُزاحمونَنا عليهِ أَيضًا..
ليَبْقَوا فِي نعيمِهم الَّذي لاَ نُريد!

شهوةُ الطَّمس

أَنا أُريدُ لكِ الحياةَ..
(هُم يَشعرون ولاَ يَشعرون)
أُحافظُ عليكِ كمَا يحافظُ ضوءٌ علَى لعابِهِ منْ جفافِ عَتمة..
(هُم يَنظرون ولاَ يَنظرون)
أَضمُّكِ إلى كتابِي نشيدًا يُقِيلُ عثراتِهم..
(هُم يَنهضون ويَسقطون)
أَيَّةُ جدليةٍ تلكَ الَّتي تُثيرُ شهواتِ الطَّمسِ منْ خلالِ أَبواقٍ لهَا بريقُ الذَّهب؟
أَيَّتها الرَّائيةُ المستشعِرةُ الخارجةُ منْ فوَّهاتِ مَسامِّي السَّاخنة:
خُذِي عنِّي رَحيقِي، واحتَرفِيني لأَجلٍ مسمًّى..
إنِّي أَراني فيكِ أَكثرَ وضوحًا منْ صُدْفةِ قمرِهم في مسارِهِ نحوَ حكمةِ الأُفول!

إطلالةٌ باهتةٌ

للحرائقِ أَنْ تنضجَ أَكثرَ..
أَيَّتها الأُنثى فِي سَبْرِ أَغوارِي العَميقة..
لكِ منزلُ الحبِّ واتِّجاهُ القصدِ وماءُ الاشْتِهاء..
لاَ أَنساكِ فِي إطلالتِهم الَّتي باتتْ باهتةً، ولاَ تدَعيني أَنشغِل بِهم كثيرًا..
أَمدُّكِ دمًا جديدًا ليغطِّي صوتُه فِي عروقِكِ علَى ضجيجِ صدورِهم..
أَيَّتها الأُنثى الأُنثى، وأَيَّتها الأُنثى- القَصيدة!

حافَّة المعنَى

لاَ أَحسبُني أَقولُ شططًا..
(إنْ كانَ هذَا فقوِّمُوني)
أَلَمْ ترَوا أَنَّها تُقِيم فِي ذروةِ الحقيقةِ، فلاَ حضورَ ولاَ حبورَ إلاَّ بِها..
هيَ مَعْنى إقامةِ الغِبطةِ فِي سَراحِ القلبِ..
لاَ أَقولُ: متَى؟
لكنِّي أَقولُ: كيفَ؟

حينَ تتساقطُ

«سوفَ يستفيقُ ويقرأُ ويكتبُ رسائلَ طويلةً وفِي الممرَّاتِ هُنا وهُناك يتمشَّى قَلِقًا حينَ تتساقطُ أَوراقُ الشَّجر.»
[رَاينر مَاريا رِيلكه]

أُومئُ لَهم

مَا أَزالُ أُومئُ لَهمْ، وسأَبقى..
تلكَ (حصَّةُ) العاشـقِ الغيورِ علَى محبوبتِهِ منْ خلالِ تسـلُّقِهِ سـلالمَ القطبِ المتجدِّد..
لقدْ تسـاقطتْ أَوراقُ الشَّـجرِ منْ خريفٍ بعيدٍ، وأَخفَيْنا عيونَنا كيْ لاَ تذْكرَ الفضيحة..
مَا كانَ لَهم منْ مناصٍ سِوى استنساخِ الماضِي، أَوِ ابتداعِ أَوراقٍ أُخرى..
يَا أَبا الطَّيب المتنبِّي؛
لقدْ أَفسدتَنا كثيرًا دونَ قصدٍ منكَ!

m.h.risha@gmail.com

إذاً... هي حرب غوار الثقافة

عادل سمارة

تنويه: قُدِّمت هذه الكلمة في بيت الشعر في مدينة البيرة صيف ٢٠٠٧، ضمن تلطُّفٍ من الشباب لتكريم مجموعة من الكتاب، كنت أحدهم. ولأنني اشكرهم أولاً، ولأنني أُطارَدُ في هذا البلد، كان التكريم لي مُدهشاً. لذا، قررت أن لا أنشر هذه الكلمة رغم إلحاح الكثيرات/ين ممن أحب ويحبونني. رأيت أن في نشرها إشهار للذات، ورأوا فيها عملا ثقافياً ادبياً، وها انذا اعود لأرى أنني أخطأت وهم اصابوا.

أشكر الشعراء والشعر وبيت الشعر، أشكر من يحتفون بالموقف، اشكركم حتى إكتمال الشكر، هذه لحظة مقاومة. الإحتفال بالفكر والثقافة مقاومةً لانهيار القيم، ولحظة الخروج على الخط المهيمن هي مقاومة، وما الذي يلجم صناعة الموت من البنتاجون حتى بكنجهام غير المقاومة. الوعي احتفال، والاحتفال بالأدب والثقافة والفكر رفض لمقولة «انتهاء عصر الإيديولوجيا»، فما تخيلوه انتهى... قد تأجل، إنه عصر الثورة، ليحل محله عصر الإيديولوجيا. لا يسهل إحراج الإيديولوجيا، فهي تزعم الإجابة على مختلف الأسئلة التي ليست فيها.

إن صح تقديري، فالتكريم يلي في العادة انتهاء المعارك، أما في حمأة الإشتباك فتشغَل أناساً المواجهة، وينشغل أناس في حماية الرأس. فأين نحن من إنجاز المشروع القومي، واسمحوا لي أن أتجاوز على فلسطينية الكثيرين وأقول، قبل الوطني، فأي مشروع وطني قبل القومي هو تسوية. أما وهذان لم ينجزا، فما بالك بالطبقي؟ ماذا والفقراء يتذابحون على بقايا وطن مذبوح، ليرتفع أمراء حربٍ وليفتحوا فتحاً جديداً لتراكم رأس المال من حيفا حتى باكو- باطوم. لكي يتراكم رأس المال، يجب أن يموت ما أمكن من الفقراء وهم يرددون نشيد موطني أو «هاتكفا». فهذا عصر سلام رأس المال. من أوسلو إلى البحر الميت اليوم حيث يتكون مجلس الأعمال الإسرائيلي-الفلسطيني. إحياء البحر الميت، ووأد شعب حيٌّ. هو عصر القطاع الخاص الذي لا دخل له بالسياسة والوطن والنضال، فالإستشهاد والمعتقلات لعبيد الأرض من الفقراء، أما القطاع الخاص فهو «رافعة الإقتصاد» . كل ألوان الفلتان ملعونة وممنوعة حتى الفلتان الثوري، حتى فلتات سيوف العبيد من ثورة الزنج حتى القرامطة، لا قداسة إلا لفلتان التراكم. رحم الله ابن سعود الذي قال رافضاً استخدام سلاح النفط: «لا علاقة للإقتصاد بالسياسة» وبهذا أخذ ماركس أخذ عزيز مقتدر. ربما لهذا لم يُفلح الماركسيون في هذا الوطن!.

مجلس أعمالْ، بيننا وبين الإحتلالْ، جميل هذا السجع الإقتصادي الذي يمكن شرائه باليورو بعد انهيار سعر صرف الدولار. ثم يقولون هناك، كما كتبت جريدة القدس «ببراءة وسذاجة» على لسان أحدهم: «أولويتنا حالياً فك الحصار المفروض على شعبنا». صحيح ايها السيد وبدايته بالتطبيع مع راس المال الصهيوني. وهكذا، بدل أن نبني وطناً، سمحنا للقطط السمان بالإيغال في دمنا. وبدل أن نبلور مجتمعا مدنيا خلقنا قشرة حداثية بالتدريب الرياضي على الإقتراع دون ان نحترم النتائج، ووصلنا بالأنجزة ما بعد الحداثة ووصل لبنان ما بعد ما بعد ما بعد حيفا.

في التراكم، يقول لويس الفريدو اراجو من غواتيمالا

رأيتهم مرة يدفنون ولدا متوفى
في علبة من الورق المقوى
هذه حقيقة لم أنسَها
كان على العلبة خاتماً
شركة جنرال الكتريك
التقدم هو أفضل منتجاتنا

أما في بغداد فلا توجد علب الكرتون.

أما والإحتفاء بمن قبلي وبي، فماذا عن المشروع الشخصي؟ مشواره أطول من العمر كثيراً، كبير على المرء، لكنه مُكَوِّن صغير في المشاريع الثلاثة هذه. المشروع الشخصي موجع ومؤلم فهو الأسهل حصاراً، والأقل سلاحاً، والأقصر عمراً. ولكن كما قال النبي: «أنت على ثغرة من ثغر الإسلام، فلا يؤتين من قِبَلِكْ». والثغرة ليست شرطاً هي الثغور، فالثغرة جسد أمك، رؤيتك، ثقافتك، لغتك. يكمن المقاتل خلف سلاحه، أما المثقف فيكمن خلف وعيه، الأول المع والثاني أعمق، الأول اقدس والثاني أبقى، الأول فيض تضحية، والثاني أصنع للتاريخ، طوبى لمن عاشهما معاً، حتى لو منفياً داخل بيته أو في «الإكسيم- بالعبرية الفصحى». فشرط الموقف أن تكون بسيفك خروجاً ابدياً في وجه المنفى.

يختصر فلاحو الزاباتيستا نضالهم من أجل الحياة في كلمات ثلاث: «إسأل، نحن نسير».

أما كثرةً من المثقفين الروس وبينما العمال والفلاحون والجنود الجياع يتدفقون إلى شوارع موسكو وسان بترسبورغ يمارسون فعل الثورة واعتلاء صهوة التاريخ على جموحه، فما الثورة، إن لم تكن خروج العبيد على هيمنة إيديولوجيا السيد وجلاوزته. والسيد باختصار، لص بامتياز. كانوا في الحانة يتنقلون بين تخمة زجاجات الفودكا ويسخرون من الجياع شبه العراة الخارجين على القيصر. لكنهم خلعوه. «فما أكثر ما يتقلّب هذا الحسن البصري- مظفر». أكبر الكبائر أن تخون هي أو هو وعيها وعيه بوعي، فيدخل المرء بنفس الحرارة مخيم جنين، وسامراء والبيت الأبيض والكنيست. كلما اشتدت التحديات، كان على المثقف أن يختار بين الحسن البصري وبين الحلاج، وصنع الله إبراهيم.

حينما كان مؤتمر مدريد اختار رأس المال قاعة فيها تمثال فرنجي يقطع راس عربي. فقالوا: عملاً فنياً ليس أكثر.

الإحتفال ممكنْ، والغناء ممكن حتى في الحرب، فالأمل، وإن كانت دافعيتة شعورية إلا أن العقل هو الذي ينحته ويبردخه ويصقله . ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل». أبو الطيب.

الإحتفال والاحتفاء يأتيان المرء كل صباح. فلا أجمل أن تنهض لتكتشف أن راسك ما تزال بين الكتفين. يوم آخر للإشتباك، فلا معنى للسلاح الكسول.

تصوروا، يلتقي سلاح الوعي ورأس المال في الحركة الدائمة لكليهما، هذا التضاد العجيب. علمونا في الكليات البليدة أن القرش إذا لم تستثمره يثقب الجيب ويخرج، لأنه لا يطيق الإكتناز، ربما هذا التناقض بين قرش المستغلِّين وشحمهم. الوعي، إذا لم يتفعَّل، يتسامى من الرؤوس الثقيلة بالذل الطبقي والقومي والثقافي.

هو يوم اشتباك جديد، لكن ما يطلبه العمر منك لا نهاية له، وما يشنه خصوم الحياة عليك ابدياً، فمتى تحتفل. ما أكثر مشاريعك، وما أضيق الوقت، وما أكثر متطلبات الحياة، من كسرة الخبز حتى لحظة الموسيقى، ومن عين مهيً تخطف منها إو إليها على الرصيف نظرة إلى عشقٍ تبرح العمر ولا يبرحك؟ ليس إلا أن تتصالح مع روحك فتجعل من زمنك القليل لحظة مقاومة ، ومضة احتفال. لا تبكِ، فليس شرطاً أن تشهد النصر أنت. إنما، يجب أن يموتوا قبلنا. هم ينتصرون بالمنصب، بأُعطية الحاكم، والأنجزة، وحتى ال CIA لم يعد يهمهم شيئاً، يحتفلون بشراء أمَةٍ جميلة، وسيارة فارهة، وبالظهور في صورة اقرب ما تكون إلى الحاكم، أو بإتقان مفردات أعجمية كي يدخلوا الوفد المفاوض، أو يفهموا الخصخصة، أو يحتفل بهم رئيس البنك الدولي كما احتفل بدم العراق وبشاها رضا. أما انت فاحتفل بالإشتباك وما أكثره، أنت في حرب غوار الثقافة. هل تحب حرب الغوار؟

ولكن، يا إله السماوات، أتقاوم أنت كل هذا؟

أرى العنقاء تكبرُ أن تصادا
فعاند من أطقت له عِنادا
«أبو العلاء المعري»

نعم ومن لا تطيق.

لِمَ لا، وإلا ما معنى كربلاء وكميونة باريس وجول جمال، فإما هؤلاء أو عبد الله الصغير. الذي قالت له: أعطيت ملكاً فلم تحسن سياسته وكل من لا يسوس الملك يخلعه

إبك كما تبك النساء.

آهٍ يا سيدتي العربية، ما كان لك أن تقولي هكذا في النساء، من لا يبكِ ولا يحزن، ولا يخجل لا يثور «فالخجل عاطفة ثورية-لينين».

لم يصن الملك لأن الملك أُعطيةٌ، بينما فتح الأندلس كان انتزاعاً. كان أجدر به حكماً ذاتياً.

لكنهم أقوى من الطبيعة العمياء، لأن فيهم الخبث والوعي والعلم ايضاً. كثيرون هم، مثل عديد الحصى، هم من كل لون، ومختلف التخصصات، يكمنون لك في كل دائرة وجامعة ودار نشر، وأنت طريدة في غابٍ، في حفلة صيد طرادٍ مقدس، حتى لو نسيتهم، هم هناك ورائك فوق جثتك يتعقبون وعيك. لا بأس ، تماسك، عض على النواجذ، فهي حرب غوار ثقافية. المثقف مقاتل حرب غوار.

لديهم كافة وسائل قتلك. تمشي على القدمين إلى لندن، ينصبون لك الكمائن بالطائرات، تتحلّق حولك كل أنواع الراجمات، مرة أخرى ، مرات غيرها وبلا نهاية هي حرب غوار. ادركت ذلك الأنارخية سوزي فقالت:

السوبر فايزر لا يحبك!

قلت: نعم وصلوه، لذا رحلت من لندن إلى إكزتر

قدمني د مفيد قسوم، لأنثى تدير دراستها العليا في جامعة ميري-لاند.

أنت هو

قلتُ نعم

قالت، اقتطفت من عندك شيئاً فقال لي المشرف: أتركينا من عادل سمارة. جميل، إذن ما زلت تقاوم. لا شك أنه قرأ السطر وتبرّم، وانتفخت رقبته الحمراء كما لو انتصب أمامه هندي أحمر ما زال يرمي في طريق العلم البرجوازي نصراً متخيلاً للفقراء. أليست هذه الصعلكة جميلة!

هل حقاً كل إنسان مثقف أيها الفقيد أنطونيو غرامشي، وهل حقا أن هناك مثقفين؟ الثابت وجود ثقافات والمتحول وجود مثقفين. قد تكون سبرت غور عوالم لا تحصى، لتجد كل لحظةٍ عوالم أكثر، أنت فيها جاهل تماماً، وأنت جاهل بوجود لا متناهٍ لعوالم أخرى. ولكن، لتسهيل الحديث والتعاطي دعنا نقول أن هناك مخلوقات ما تسمى مثقفين. فما أخطرهم!

من الذي جعل من السلطان سلطاناً غير مثقفينا؟ الذين ركعت قوة الفكر على ايديهم على ابواب قوة المال، فمالوا!! «السلطان من لا يعرف باب السلطان». فكيف بشعراء البلاط! لن اذكر في حضرتكم اسماءً لأنني متهم بذلك، ولأن الثقافة هنا صنعة لا حرب غوار، ففيها محظور استخدام سلاح الثقافة لتصير مداهنة. لذا، حمّلْنا السياسي على رموش الوطن لنحقق في النهاية مشروعاً من تساقطات موائد عدو لا يشبع. هذه من الإقتصاد Trickle-down Economy .

الثقافي والسياسي هما الخاصرتان الأضعف في مشروعنا. مارس السياسي الهزيمة وشغّل الثقافي لاستدخال الهزيمة. أما مشروع السياسي ومثقفيه فليس السياسة ولا الثقافة، بل التراكم. وهذا ما يفسر لماذا لدينا كمبرادور سياسي وثقافي، لأن كليهما كمبرادور مصالح صغيرة في ذيل التراكم على الصعيد العالمي. قال المسيح: «لا تعبدوا إثنين الله والمال» وورد في القرآن» :ألهاكم التكاثر» وفي عصر رأس المال «ألهاكم التراكم».

أنت متطرف، لا تضبط نفسك، تتنقل من معركة إلى أخرى، كأنما تتنقل بين منتجع وآخر، وتخلق المعارك إن عزَّتْ، جندي ينام بسلاحه وحذائه، لا تعرف الحب. لا لا لا نعرفه ويعرفنا ويرافقنا على مدار زمان الطبيعة وهي مكان فالطبيعة كالثورة كلها وجه. التناقض أيها الناس يخلق نفسه بنفسه، ابدي لا ينتهي، وحين يغيب فمعنى ذلك أننا لم نلتقطه ولم نُحِط به. من يعتقد بغياب التناقض عليه أن يبحث إن كانت هناك حياة أم لا. لكنه لن يبحث لأن حياته تكون قد خلَّفته ورائها لتحل في إنسان.

المقاوم لا ينام،بل يتصدىَ: «لا مقاومة في حقبة العولمة». لن يخلع المقاوم نعليه إلا لاستخدامهما كطلقة أخيرة [1]. أما الحب، وإن شئتم العشق، فيليق أولاً وأخيراً بالمقاوم. فمن يحب الناس يحب الفرد ومن لا يحب الفرد يكره الناس. ليس الحب قبل الأكل، أو بعد الأكل أو عند اللزوم. إنه الثلاثي الذي يتماسك حتى الرعشة الأخيرة وبعدها :العمل والحب والثورة.

أخطر المداهنة كامنة في المثقفين فهم يوفرون مناخات متعددة متناقضة، يقول فيها المرء ما لا يكون. ويكون ما لا يقول. ولأن المثقفين يسمحون لك بذلك. لا يمكنك أن تكون تماماً كما تقول.

والخطورة أن يكون دأب المرء أو مشروعه أن لا يكون ما يقول أن يفصل الإبداع عن الموقف بقرار واعٍ، هذا أخطر من التغريب المترتب على الصنمية البضاعية لأن التغريب مفروض بينما هنا الفصل اختياراً. تكمن مأساة التغريب في اندغامه بالهيمنة، التماهي في هيمنة الإيديولوجيا السائدة ليصبح المثقف عبداً لها، سواء أدرك العبودية ولم يقاومها أو لم يدركها ورأى نفسه حراً ومحرِّر آخرين.

لا بد للمثقف أن يكون ما يقول، بل ما يعتقد. في هذه الحروف القليلة تكمن لحظة الإنتصار. فيها بالتحديد انتصر تشي وهو يستشهد، أما بوليفيا فانتصرت قبل عامين. حاول حتى كبي الحصان، واغتيل الفارس. لكنه ظل المنتصر ابداً. هل يعرف أحد عدد الرأسماليين الذين سرقوا وحي وإيحاء تشي ليصنعوا ثروات من القمصان والميداليات. أيُّ استخدام سافل هذا! ألم يستخدم تجارنا قميص عثمان!

وحده فِعْلُ الثقافة الذي يبقى بعد رعشة الإنتقال. للرصاص يبقى الأزيز، وللمال يبقى التراكم، أما الثقافة فتبقى وتُبقي معها من كان صاحبها. الخيار واضح: إما الثورة، وإما ضدها. فالثقافة حتى بعد الرحيل باقية في قلب التناقض، هي جزء من التناقض نفسه، وإن كان تناقض الأشياء مناخ تناقض الأفكار.

ماذا نريد من المثقف الذي نحب؟ لا نريد منه تحقيق طوبى. نريد له أن يحب مشروعه ولا يخنه. نريد منه الثبات، أن يجعل بين الثابت والرقاص مسافة تفصل بين الإنسان والرق كلٌّ باختياره. فليس عبداً من يقاوم حتى لو كان في القيد. لكن عبداً من يساوم. أنظروا إلى المساومين: وجوه متجعدة منذ الصبا، عيون مرتخية، يحلمون بالصف الأول، ويقفون وراء سادتهم ويمدون أعناقهم علّ صورتهم تُرى، باختصار لا يكونوا ما يقولون.

فاجأني... من أنت؟ يسألونني عنك كثيراً؟

أنا تماماً كما ابدو يا فتى الفضائيات، لا أُخفي ولا أتخفى رغم حرب الغوار الثقافية. فهي في بعض الأحيان، «ليست اضرب واهرب» إنما «اضرب ليهرب». عربي أنا، لأن المرحلة تشترط الحفاظ على المقاومة العربية لوحشية راس المال دفاعاً عن البشرية من مقاديشو حتى كاركاس، نحن المصلوبون على جدران الكعبة، لكن لا غرابة ان أسماءَ لم تقل بعد، «أما آن لهذا الفارس أن يترجل». أتعرفون لماذا؟ لأن الفارس يقاوم مصلوباً.

ليست المسألة القومية كما رآها ماركس. كل قومية قوميتان:

للطبقات الشعبية العربية قومية تنموية وحدوية واشتراكية،

وللكمبرادور قوميته المدعاة، المتخارجة والمعادية للأمة.

واشتراكيٌّ أنا يا صديقي،

وإني امرؤ عافٍ إنائيَ شركة
وأنت امرؤ عافٍ إناؤك واحدُ
أُقسِّم جسمي في جسوم كثيرة
واحسو قراح الماء.. والماء باردُ
«عروة بن الورد»

- الدولة ليست ناقلة للتنمية في غالب الأحيان. هذا اقتراب من الأنارخية.
- التنمية بالحماية الشعبية

إشتراكي لأن ابي الفلاح الذي لم يقرأ ولم يكتب في عمره حرفاً قال لي جملة فهمتها حينما فهمت بعض الشيوعية: «يا ابنيي بتمنى عمركم ما تشتغلوا عند حدا». هل تضحك أم تبكي، لم يُشَغِّلني أحداً فاشتغلت أنا، وحققت أمنية الرجل الذي سكت قلبه عن النبض مبكراً، بعد يومين في ٢٥ ايار ١٩٦٥، هنا في هذه المدينة التي كانت الأجمل قبل أوسلو التي جلبت فيما جلبت علب الإسمنت وأسكنتها الدجاج. كان يسعى بين دوائر الشرطة والعسس يسألهم إن كنت أسيراً «في حصن خرشنة» أم قتيلاً. أكدوا له موتي. ومنوا عليّ بأن أخرجوني لأشارك في دفنه، رأيته ولم يرني.

كلمات أبي البسيطة تعني ارتعاباً من «العمل المأجور»، وتحديداً حين يقولها منتج صغير، لم ينتج القيمة الزائدة ولم يسرقها من أحد.

الإقتصاد الوطني مسألة مفترضة وحتى إيديولوجيا، أما الواقعي فهو اقتصاد الطبقة.

وشاخ من البيان الشيوعي الكثير.

الحزب اللينيني لم يعد عصرياً، والحزب الحقيقي تفرزه الإتحادات الشعبية وتضعه تحت عينها ليل نهار، تأمره ولا يأمرها. والإمبريالية ليست أعلى مراحل الراسمالية، بل العولمة هي تلك.

وإلى جانب اشتراكيتي المتشددة، لست ضد الإيمان الطبيعي والبسيط. لكنني ضد إغراق الله بنفط الوهابيين.

أنا مع الدولة الواحدة في وطن العرب

ومع رفع احتلال الرجال عن النساء.

شكراً لبيت الشعر وللحضور من الطرفين المتخاصمين تاريخياً.

أطلت بأكثر من حقي القليل. أما طريق الآلام فجميل وطويل.

(١) أما وهذه تنشر بعد أربع أعوام على كتابتها، فإن ذكر النعلين، أعاد لي كيف ألقيا كطلقة أخيرة من منتظر الزيدي على رأس المأفون بالحرب والمتعطش لدم أطفالنا جورج دبليو بوش. فمعذرة على الإضافة.

المثقف الفلسطيني وحالة التهميش والحصار التي يتعرّض لها

الماكارثية الفلسطينية

د. أفنان القاسم*

دائمًا ما كان الصراع السياسي صراعًا ثقافيًا يعكس أفكار وبرامج ومشاريع الأطراف المتواجهة، وعلى هذا الصراع الثقافي يتوقف نجاح هذا الطرف أو ذاك في الصراع السياسي، وبالتالي تحقيق فكره، وتطبيق برنامجه، وتنفيذ مشروعه الذي يؤهله لحمل شعلة الإصلاح والتغيير. في الصراع السياسي الفلسطيني لا توجد أطراف متواجهة، منذ عمان وبيروت وتونس وحتى زمن الدولتين تحت الاحتلال، دولة الأوسلويين ودولة الإخوان المسلمين، وإنما أطراف متوافقة تحت ذريعة تحرير الأرض، لهذا لم يكن هناك بالأمس أي فرق يذكر في العمل السياسي بين فتح والشعبية والديمقراطية والحزب الشيوعي... إلى آخره، واليوم مع حماس وباقي الإسلاميين، بعد أن ألغى الصراع الثقافي بقرار «حزبي» لصالح وهم التحرير. وفي أشد حالات التراجع هولاً التي نعيشها اليوم (الانقسام) ينكفئ كل طرف على نفسه، وينتج ثقافته الخاصة به أو أيديولوجياه، ويتحول الصراع الثقافي إلى تراشق أيديولوجي بالمعيار الخفيف أو بالمعيار الثقيل حسب المصالح التي تخدم مشروع هذا الطرف أو ذاك في الحكم والسيطرة والإثراء وقد غاب مشروع التحرير الأساسي، فتقف الأمور عند هذا الحد بعد أن توقفت الثقافة عن القيام بفعلها الخلاق كمحرك للسياسة. قبل قيام سلطة أوسلو، بمعنى في ظل مؤسسات سلطة منظمة التحرير في المنفى، كان هناك المثقف ابن الثقافة السائدة ثقافة التوافق، أو المثقف الملقى على الهامش ابن الثقافة النقيض ثقافة التواجه، وبعد قيام سلطة أوسلو بقي وضع المثقف في نمطيه على حاله، الذي تغير مع قيام الدولتين تحت الاحتلال، هذا التمحور الثنائي لخطين لم يتوقف كلاهما عن تصدير كل الأدبيات التي قالت في المحتل ما قالت منذ ٤٨، إضافة إلى الأدبيات الخاصة بهما في الدفاع عن مصالحهما ولا أقول مشروعيهما لأن لا مشروع لهما، مصالحهما في السيطرة الأخطبوطية والحكم الاستبدادي والإثراء الغير المشروع، والأقلام التي ستنبري للدفاع عن هذين الطرفين كثيرة، فهي فرصة لا تعوض لبيع الكلمة بالثمن الذي تريده هذه الأقلام، من أجل مهمة وحيدة واحدة ألا وهي التبرير لكل شيء، حتى الحلم بالحبيبة سيعتمد التبرير، حتى الصعود على سلالم القمر سيعتمد التبرير، حتى تعريب (على عكس تهويد) كل القدس الغربية سيعتمد التبرير والتسويغ والتأييد.

إذن الملقى من المثقفين الفلسطينيين على الهامش هو ملقى ليس لأنه في المنفى بعيدًا عن سلطتي الضفة والقطاع، وإنما لأنه يكتب من خارج الثقافة السائدة، أينما كان موقعه في المنفى أو في الأراضي المحكومة صوريًا، ليس لأنه يناهض الاحتلال، وإنما لأنه يناهض سلطتين تحت الاحتلال هما أشد وطأة عندما يعتمد كل وجودهما على تبرير هذا الوجود وإثباته لا على نفي الاحتلال والتخلص منه، لهذا يتم نفيه، وعزله، وتهميشه، ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل يُضَيّق الخناق عليه، ويُلقى به هو وأعماله داخل حصار ماكارثي له غايتان.

الغاية الأولى على المستوى الثقافي: مطاردة كل كلمة مبدعة حرة تقول ما تود قوله دون أن يعبأ صاحبها بالنتائج، والخوف السلطوي من الكلمة المبدعة الحرة هنا نابع من العودة بالثقافة إلى حلبة الصراع السياسي، ومن أن تلعب الثقافة دورها الحقيقي التاريخي في الإصلاح والتغيير، هذا الدور الذي سبق وتمت مصادرته. ولكن من ناحية أخرى، هناك خوف الكاتب غير المحسوب على السلطة من عصا السلطة، فيختار الصمت، أو يقلب سترته، أو يصادر حريته في الكتابة، أو يوهم نفسه في السلطة بما لا يراه أحد سواه، فيرتاح (هل يريح ضميره؟)، ويجد التبرير الذي يرضيه.

الغاية الثانية على المستوى الس